تاريخ العلوم
المجلة العربية المتخصصة في تاريخ العلوم والدراسات والأبحاث الإيبستمولوجية

أهمية مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني في كتابة الصراع الغربي الإسلامي فترة حكمه 1876م-1909م "القضية الأرمينية أنموذجا "

The Significance of Sultan Abdul hamid's II memoirs in writing the history of the western-islamic conflict during his reign

معزوزي رشا
جامعة المدية
chichracha@yahoo.com

تاريخ الاستلام : 2019-10-26 تاريخ القبول : 2019-11-22

الملخص :

تعتبر مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني مصدرا أساسيا لتأريخ عهد السلطان عبد الحميد الثاني من أواخر السلاطين العثمانيين ، الذي بلغت فيه أطماع الدول الأوروبية الغربية أوجها .

تتناول هذه المذكرات عدة أحداث عاشها السلطان عبد الحميد فترة حكمه (1876-1909)،تمثلت أغلبها في المؤامرات الصليبية على الدولة العثمانية وعلى حكمه ،أدت إلى عزله كما أدت إلى سقوط الدولة العثمانية .

تكشف المذكرات حقائق الأحداث من وجهة نظر السلطان وموقفه منها ، ومن المسائل التي عرفت التشويه والتضليل في فترة حكمه المسألة الأرمينية، التي أصبحت بصمة سوداء في التاريخ العثماني، تظهر هذه المذكرات أسباب وأحداث النزاع بين الأرمن والمسلمين وكيف تعامل السلطان عبد الحميد الثاني مع تمرد الأرمن.

الكلمات المفتاحية : المذكرات ،السلطان عبد الحميد الثاني ،الأرمن ، الصراع ، الغرب ، المسلمين .

Abstract :

The memoirs of Sultan Abdul Hamid II are considered to be the major source of information to his reign (1876-1909). With that being said, during this specific epoch of history which was remarkably marked by notable events, Western ambitions had reached their peak. These memoirs examine several events occurred during the reign of the Sultan Abdul Hamid II. Mostly, the crusaders' conspiracies against the Ottoman Empire and the Sultan's rule, causing the latter to his isolation and consequently the collapse of the whole empire. Further, considerable data was unveiled from the Sultan's perspective and his absolute points of view regarding numerous events and matters of inquiry. Among which, issues of distortion, beguilement and the Armenian issues, which remained as a black stain in Ottoman history. This incident was seen as a hot meal for western ambassadors, consuls and the European newspapers, in the sense that they took advantage of it to mislead the public opinion regarding the exaggerated published reports of Armenian deaths. Moreover, the Sultan's memoirs clarified the real reasons behind the Armenian-Muslim conflict and to what extent Abdul Hamid II could deal with the Armenian rebellion.

Key words: memoirs, Sultan Abdul Hamid II, Armenians, conflict, western, Muslims.

المقدمة:

واجه السلطان عبد الحميد الثاني فترة حكمه 1876م-1809 م العديد من المؤامرات الأوروبية ضد الدولة العثمانية بالصفة عامة وضد حكمه بالصفة خاصة ، إذ اعتمدت الدول الأوروبية على سياسة خاصة تهدف من خلالها إلى إضعاف الدولة العثمانية ، حتى يصبح من السهل قسمها واستحواذ على أراضيها ، فاستغلت كل ثغرة واستعملت أي حجة من أجل التدخل في شئون الدولة العثمانية ، واعتمدت على الأقليات في الدولة العثمانية بالدرجة الأولى في ذلك ، بعدما حصلت الدول الأوروبية على حق حماية الأقليات من خلال الامتيازات ممنوحة لها من طرف الدولة العثمانية ، فلم يقتصر دورها على حماية الأقليات ومطالبة بحقوقهم داخل الدولة العثمانية فقط بل أصبحت تحرضهم على الثورة والتمرد والعمل الإرهابي، وتحرضهم على المطالبة باستقلال عن الدولة العثمانية ليكون لها من هذه المقاطعات نصيب ،ومن أخطر الثورات و التمرد في فترة عبد الحميد الثاني كانت على يد الأرمن ، التي عرفت فيما بعد بالقضية أو المسألة الأرمينية بعد تطور أحداثها ، وعرفت المسألة ضجة عالمية في وقتها ولازالت خلافات حولها إلى زمننا الحاضر ، رغم الاعتراف الأوروبي بها ، إلا أن الدراسات حول المسألة الأرمينية لازالت قائمة ، و انقسم المؤرخين بين مؤيد ومعارض لفكرة المسألة الأرمينية وتطوراتها ، من يرى أن تمرد الأرمن ومطالبتهم باستقلال عن الدولة العثمانية كان نتيجة لاضطهاد الذي عانى منه الأرمن من قبل العثمانيين ومن يرى انه كان نتيجة للتحريض الأوروبي للأرمن .

تكمن أهمية البحث في تعرف على أصل مشكلة الأرمن وكيف تطورت في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني من خلال مذكراته الذي تكلم فيها عنها وأظهر موقفه منها وكيف تعامل معها تجنبا لإنفراد برأي واحد و اطلاع فقط على أراء الأطراف المقابلة لسلطان عبد الحميد الثاني ، ومن تساؤلات التي يطرحها الباحث حول هذه المسألة ، كيف بعد ما عاش الأرمن لقرون في الدولة العثمانية لم تطالب هذه الأمة باستقلال إلا في مرحلة ضعف الدولة العثمانية والتكالب الأوروبي عليها ؟ وهل فعلا السلطان عبد الحميد الثاني اضطهد الأرمن ولم يعاملهم جيدا ؟ ،ومن هنا وقبل الولوج في الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال تقديم وتعريف مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني والمشكلة الأرمينية وموقفه منها ، نقوم أولا بالتعرف على السلطان عبد الحميد الثاني وعهده .

التعريف بالسلطان عبد الحميد الثاني وعهده :

ولد عبد الحميد الثاني وهو ابن السلطان عبد المجيد(1839م-1861م) صاحب الفرمان التنظيمات [1] الذي ينظم الدولة العثمانية على الطراز الأوروبي ولد في 21 سبتمبر 1842 م، تولى العرش في 31 أغسطس 1876م ، ماتت والدته وهو في العاشرة من عمره ، واعتنت به زوجة أبيه الثانية ، تعلم عبد الحميد تعليما منتظما في القصر السلطاني على أيدي نخبة مختارة من أشهر رجالات زمنه علما وخلقا ، تلقى العلوم الأساسية في عهده وبجانبها تعلم الفارسية وأجادها وتعلم العربية وأجادها وكان ينظم الشعر وكان شخصية قوية منذ صغره ، كان متدينا وسط جو أوروبي يعيشه أمراء القصر السلطاني حريصا على أداء الصلاة ، هو السلطان الرابع وثلاثون الذي تولى الحكم كان حكمه فردي استمر مدة ثلاثين عاما ونصف عام حتى 13ابريل 1909 . [2]

عهد عبد الحميد والمشاكل عديدة التي واجهها:

1- تمرد الصرب و الجبل الأسود

2-الديون المتبقية من عهد والده وعمه عبد العزيز(1861م-1876م) مليون ليرة ذهبية عام 1881 ،كانت كل من انجلترا وفرنسا في مقدمة الدائنين ،وقد نجح السلطان عبد الحميد الثاني في حل المسألة الديون هذه بتقليلها إلى النصف تقريبا .[3]

3- أطماع الدولة الغربية في الدولة العثمانية قد بلغت أوجها وبحثها عن إي حجة تستطع من خلاله التدخل في شؤون الدولة العثمانية كأوضاع النصارى في الدولة ، وكان عليه مواجهة هذه الأطماع وإيجاد حل لمشكلة فاعتمد على سياسة لإيقاع بين القوى العالمية حتى تدخل حربا فيما بينها،ورأى السلطان عبد الحميد أن هذه الحرب من شأنها تصفية قوة هذه الدول وإحداث معادلة في توازن القوى العالمية .[4]

4- ظهور الأفكار القومية وتشكل جمعيات وأحزاب ومناداتها بالدستور، كان الشباب العثماني المثقف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد تأثر بأفكار الثورة الفرنسية ، التي حققت حكما ديمقراطيا في فرنسا وأتت بأفكار القومية والعلمانية والتحرر من الحكم الفرد، وكذلك تأثر بالحركة القومية الايطالية بنظمها وخلاياها ، وكانت الدولة العثمانية قد تعرضت لحملات عسكرية وإعلامية غرضها إضعاف الدولة والعمل على تفتيتها من قبل الدول الأوروبية[5].

نادت حركة تركيا الفتاة بالحرية والدستور ومحاربة الإقطاع والتحرر من السيطرة الأجنبية ورأوا أن العمل لابد أن يكون في شكل تعريف الشعب بحقوقه السياسية وحصوله عليها ،وبالتالي فإن رغبة الشعوب النصرانية في الاستقلال بمناطقها عن الدولة لن تجد لها ما يبررها من تدخل أجنبي بحجة المساندة الأقليات الدينية ، ودعت من أهدافها للوصول إلى ما تصبوا إليه من حركة الإصلاح في المجتمع وتقييد السلطة الحاكمة المستبدة وإقامة حياة دستورية مع إقامة حكم مركزي في استانبول وفي الولايات التابعة للدولة .[6]

بدأت حركة تركيا الفتاة بتأسيس جمعية سرية قامت في عام 1860 م مكونة من ستة أفراد عرف من أعضائها الشاعر نامق كمال وأية الله بك ،كان في فرنسا تلك الفترة مصطفى باشا الأمير المصري حيث أعلن انه ضمن التيار المنادي بالدستور في الدولة العثمانية ، كما شارك أسرة محمد علي في مصر في هذه الحركة[7]، وقدم مصطفى باشا نفسه بعبارة ممثل حزب تركيا الفتاة وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوروبية كثيرا فشاع اسم حزب تركيا الفتاة .

5- مؤامرات لخلع السلطان عبد الحميد أعضاء الجمعيات ، من جماعة العثمانيين الجدد و من الماسونية قامت بها جمعية كلانتي سكاليبري -عزيز، والمؤامرتان مدعومتان من انجلترا ، محاولة أحد الأرمن اغتيال السلطان عبد الحميد أثناء خروجه من الجامع ، لكن كل هذه المحاولات بآت بالفشل .

مؤامرات الإتحاد والترقي وهو أول حزب سياسي في الدولة العثمانية كان ظهوره عام 1890م ، وكان سريا مكونا من خلايا طلبة الحربية والطبية العسكرية ، وكان تأسيسه يهدف إلى معارضة حكم السلطان عبد الحميد الثاني والتخلص منه .

في 13 افريل 1909م حدث في استانبول اضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية الإتحاد والترقي ، عرف الحادث باسم حادث 31 مارت، وقد احدث هذا اضطراب كبير في عاصمة الدولة نتيجة تدبير أوروبي ويهودي مع رجال الاتحاد والترقي ، تحرك على إثره عسكر الإتحاد والترقي من سلونيك ودخلوا استانبول وبهذا تم عزل السلطان عبد الحميد الثاني ، ثم وجهت إليه جمعية الإتحاد والترقي التهم التالية : تدبير حادث 31 مارت ، إحراق المصاحف ، الإسراف ،الظلم وسفك

الدماء .

ونفاه الجيش على إثر هذا إلى السلونيك لأنها كانت تعج بأنصار الاتحاد والترقي، ثم نقلوه أثناء الحرب العالمية الأولى إلى استانبول معتقلا في قصر بيلربي [8]

ويقول في هذا الصدد محمد حرب في كتاب الذي قدمه وترجمه (مذكرات السلطان عبد الحميد)" البحث العلمي أثبت عدم علم السلطان عبدا الحميد بحادث كما تذكره ابنته شادية في مذكراتها والدي السلطان واستحالة حرقه المصاحف ،فهو معروف بتقواه وعدم إسرافه "[9]

مع أن جمعية الإتحاد والترقي العثمانية ،تبنت الأفكار الغربية المضادة للإسلام وللفكر الإسلامي ،لكنها استغلت الدين عند مخاطبتها للناس للتأثير فيهم ، وكسب أنصار لهم في معركتهم ضد السلطان عبد الحميد الثاني ، وقد نجحوا في ذلك .[10]

2- مذكرات السلطان عبد الحميد:

هي مجموعتين من الخواطر الأولى بعنوان" مذكراتي السياسية 1891-1908" لمترجم مجهول تم نشرها من قبل مؤسسة الرسالة ،وهي عبارة عن خواطر سياسية لأحداث كانت فترة السلطان عبد الحميد ،جهد فيها السلطان في كشف تأمر الثالوث : الدول الأوروبية الصليبية ، الحركة الصهيونية ، دعاة القومية . بعد أن كتب على شخصية السلطان عبد الحميد وعن عهده بعد إعلان الدستور كتب كثيرة، وكان الكثير مما كتب بإيعاز من الاتحاديين بعد تسلمهم الحكم ،أو بأيدي وأقلام مشبوهة قصدت عمد تشويه سمعة السلطان والإساءة إلى دعوته في جمع شمل المسلمين [11]، والمجموعة الثانية بعنوان" مذكرات السلطان عبد الحميد " والتي قدمها وترجمها إلى العربية محمد حرب ونشرت عام 1978 وهي "'يومية على مدة 41 يوما ،إذ بدأ السلطان في إملاءها في 1مارس1917 وفرغ منها في 8 أفريل من العام نفسه ،كل يوم يتحدث عن بعض الأحداث و الشخصيات ويحللها ويذكر موقفه منها ويرد على بعض الأكاذيب التي أشاعها المزيفون بعد عزله،لا يتقيد بالتسلسل الزمني في عرض الأحداث ،ولكنه يلتزم عرض الموضوع الواحد بالتسلسل والترتيب .[12]

يركز السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته أولا في أوضاع الدولة العثمانية وولاياتها فترة اعتلائه الحكم كالديون، و قتل عمه عبد العزيز ،و يتكلم عن أعدائه من الذين كان يقدمون الولاء للدولة والسلطان لكنهم خرجوا عن طوعه وقاموا بمؤامرات ضده كالصدور العظام الذين حاولوا السيطرة على كل من والده عبد المجيد و عمه عبد العزيز ، ويتحدث عن تكالب الدول الأوروبية على الدولة العثمانية وتدخلها في الشؤون الدولة من خلال استغلال أقليات وتحريض على التمرد والثورات ثم تتدخل هي بحجة إخماد النار وبصفتها الحامية لهذه أقليات المسيحية من خلال الامتيازات الممنوحة لها ، كما يتحدث عن سياسته الخارجية في التصدي للدول الأوروبية الكبرى ضد الدولة العثمانية ، وسياسته الداخلية في مواجهة خطر جماعة تركيا الفتاة ضد حكمه ، وتحدث عن حادث 31 مارت المدبر والذي لم يكن له دخل وأدى إلى عزله عن الحكم .

وركز بالمقابل في التحدث عن انجازاته فترة حكمه لاسيما من انجازاته في سبيل العلم واهتمامه بالعلوم وتكنولوجيا ونقل ما وصل إليه الأوروبيون من علم إلى الدولة العثمانية، و لم يريد السلطان عبد الحميد من الغرب حضارة لأنه كان يرى أن للشرق حضارته الإسلامية المتكاملة المتفوقة على حضارة الغرب ،إنما كان يريد ما يهم فقط من العلوم الحديثة ويعبر عن ذلك في مذكراته " ليس من الصواب القول بأني ضد كل تجديد يأتي من أوروبا ،لكن العجلة من الشيطان

ويقابل العجلة الهدوء والاعتدال ،يجب أن نضع نصب أعيننا ما تفضل به الله علينا ،ليس الإسلام ضد التقدم ،لكن الأمور القيمة يجب أن تكون طبيعية وأن تأتي من الداخل وحسب الحاجة إليها ولا يمكن أن يكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج "[13] ،أقام السلطان كلية العلوم وكليات للآداب والحقوق وكلية العلوم السياسية و أكاديمية الفنون الجميلة، مدارس الصم و البكم و العمى وأقام مدرسة إعدادية وثانوية ،مدارس عليا للتجارة والزراعة والبيطرة وأقام مدارس عليا بالمستوى الجامعات، وأرسل البعثات العلمية إلى كل من ألمانيا وفرنسا [14]، و تمحورت المذكرات في نقاط أساسية نذكرها كالأتي :

- عبد الحميد والدستور :

أعلن السلطان عبد الحميد في 23 ديسمبر 1876 ،الدستور الذي يضمن الحرية المدنية و ينص على مبدأ الحكومة البرلمانية ،البرلمان يتكون من مجلسين : مجلس النواب أو المبعوثين ثم المجلس الأعيان أو الشيوخ .

تعرض السلطان في بداية حكمه إلى استبداد سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد ، والتي كانت تضم النخبة المثقفة التي تأثرت بالغرب والتي استطاعت الأيدي الماسونية أن تجندهم لخدمة أهدافها ، في هذا يقول مدحت باشا وهو في مقام رئاسة لنخبة العثمانيين الجدد إلى السلطان عبد الحميد في أول عهده بالعرش 1877 "لم يكن غرضنا من إعلان الدستور إلا قطع دابر الاستبداد وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات وتعيين وظائف الوزراء ،وتأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم حتى تنهض البلاد إلى مدارج الارتقاء واني أطيع أوامركم إذا لم تكن مخالفة لمنافع الأمة" ، ويقول السلطان عبد الحميد في هذا " لقد وجدت مدحت باشا ينصب نفسه امرأ ووصيا علي ، وكان في معاملته بعيدا من المشروطية وأقرب إلى الاستبداد" [15]،كان الدستور ينص فصل السلطات من حيث الشكل لا المضمون حيث نص الدستور أن شخص السلطان مصون لا يمس وانه لا يسأل أمام احد عن أعماله ،والدستور كان مرتهنا بشخصه ،فله وحده تعيين وإقالة الوزراء ،كما أنه هو الذي يعقد المعاهدات ويعلن الحرب ومعاهدات الصلح ومن حقه كذلك إصدار جميع القوانين في شتى المجالات دون الرجوع إلى البرلمان ،وأمر السلطان عبد الحميد بأن يوضع الدستور موضع التنفيذ وبأن تجري انتخابات عامة ، كانت الأولى من نوعها في التاريخ العثماني ، وقد أسفرت تلك الانتخابات عن تمثيل ب 71 مقعدا والنصارى 44 مقعدا واليهود 4 مقاعد ، واجتمع أول برلمان عثماني في 29 مارس 1877 ، وكان مجلس الأعيان والشيوخ يتكون من 26 عضوا بالتعيين منهم 21 مسلما ، في حين كان مجلس النواب يتكون من مئة وعشرين عضوا ،وقام بعض النواب العرب بدورهم من خلال المناقشات .[16]

في سنة 1878م طلب النواب أن يمثل ثلاثة وزراء أمام المجلس للدفاع عن أنفسهم من الاتهامات الموجهة إليهم ، فما كان من السلطان إلا أن عطل المجلس ، ولم يدع هذا المجلس للاجتماع مرة ثانية لمدة ثلاثين عام ، لقد كان السلطان عبد الحميد مضطرا إلى إعلان الدستور بسبب الضغوط التي مارسها عليه الماسون بقيادة مدحت باشا الصدر الأعظم ولذلك عندما أتيحت له الفرصة قام بالتعطيل المجلس .[17]

رفض السلطان عبد الحميد فكرة الدستور وعن أسباب رفضه قوله " أن الدولة العثمانية دولة تجمع شعوب شتى ، و المشروطية في دولة كهذه موت للعنصر الأصلي في البلاد ، وهل في البرلمان الانجليزي نائب هندي واحد؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد ؟"[18] ، ولم يغير السلطان عبد الحميد موقفه اتجاه

الحكم الدستوري في دولته حتى بعد أن عزل عن العرش ويقول عن ذلك " ماذا حدث عندما أعلنت المشروطية ؟ هل قلت الديون ؟ وهل كثرت الطرق والموانئ والمدارس ؟ هل أصبحت القوانين أكثر تعقلا ومنطقا ؟ وهل ساد الأمن الشخصي ..... وإني لجد أسف فالأحداث قد أظهرت صدق كلامي" [19]

-السلطان عبد الحميد واليهود :

بحث اليهود عن وطن قومي لهم خاص بهم، ومن اجل تحقيق هذا قام تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية عدة اتصالات مع السلطان عبد الحميد الثاني صاحب السيادة على فلسطين في ذلك الوقت وإقناعه بفكرة قيام وطن قومي لليهود في فلسطين ، وزار استانبول لهذه الغاية خمس مرات في الفترة الممتدة بين عامي 1896-1902م [20]، وكان يبعث دائما على لسان كل مؤتمر برقية للسلطان يحيي فيها السلطان ويؤكد له ولاء اليهود باعتبارهم من رعاياه ، وكان هرتزل يقدر انه لا وزن له ولا وزن لليهود عند السلطان عبد الحميد ، ورأى أن يوجد وزنا ما لقضيته عن طريق تبني دولة كبرى لها وراح يتصل بالعديد من الدول الكبرى لتقبل فكرته و في الوقت ذاته الضغط عل السلطان من اجل الإذن لليهود بإقامة وطن قومي لليهود ، وفي هذا كتب خطاب لأحد المسئولين من الإنجليز" هناك طريقة لتصحيح المالية التركية ، وبالتالي المحافظة على التوازن الدولي لمدة أطول ، ولإيجاد طريق إلى الهند في الوقت ذاته وهو الطريق الأقصر بالنسبة لإنجلترا ، أقصد بهذا الطريقة إنشاء دولة يهودية في فلسطين لها استقلال الذاتي مثل مصر وتحت سيادة السلطان ،أن الأمر ممكن إذا توفر لنا دعم الدولة كبرى ،واكرر هنا انه دعم مستور .[21]

وكان يريد :

الهجرة اليهودية الهجرة غير محدودة العدد ، والتي يجب أن تشجعها الحكومة العثمانية وتيسر لها السبل بكل وسيلة ممكنة .

يعطي المهاجرون اليهود الاستقلال الذاتي المضمون في القانون الدولي ، يجب أن يقرر في المفاوضات الشكل المفصل الذي ستمارس به حماية السلطان في فلسطين اليهودية ، وكيف سيحتفظ اليهود أنفسهم بالنظام والقانون عن طريق قوات الأمن الخاصة بهم ، ويستطيع السلطان أن يصدر دعوة كريمة إلى يهود في مختلف البلاد للعودة إلى ارض أبائهم .

رفض السلطان هذا ، وعبر عبد الحميد الثاني عن رفضه ورأيه في الحركة الصهيونية وفي هرتزل في مذكراته" لا يريد الصهيونيين الاشتغال بالزراعة فقط في فلسطين بل أنهم يريدون إنشاء حكومة لهم وانتخاب ممثلين سياسيين للهم ، واني افهم جيدا معنى تصوراتهم الطامعة هذه ، وإنهم لسذج إذا تصوروا أني سأقبل محولاتهم هذه ، أن هرتزل يريد أرضا لإخوانه في دينه لكن الذكاء ليس كافيا لحل كل شيء " [22] ، وحدد ما يمكن أن يقبله من الأمر على الوجه التالي :

ألا يكون جميعا في مكان واحد ، وإنما يفرقون في أماكن تعينها لهم في الحكومة ، آن يحدد عددهم مسبقا من قبل الدولة العثمانية ، أن يكونوا خاضعين لجميع قوانين البلاد كالأتراك تماما .

ولم يقبل هرتزل هذا القول ، وراح يضغط على السلطان ويغريه ،لا بحل المشكلة الاقتصادية فقط وإنما في الوقوف إلى جانبه ضد حركات التحرير التي يقوم بها الأرمن واليونان والأتراك أنفسهم .

لم يأبه السلطان عبد الحميد بأسطورة الهيمنة

اليهودية العالمية التي أخضعت ساسة العالم ، جاء رفض السلطان عبد الحميد للعروض اليهودية في زمن تهافتت فيه القوى العظمى على كسب التأييد اليهودي لا لاستخدام اليهود مجرد أدوات لحراسة المصالح الغربية في الشرق وحسب ،ولا لمجرد التخلص من الفائض السكاني اليهودي أيضا ،بل للحصول على المكاسب من النفوذ اليهودي المالي والسياسي الذي راجت أسطورته آنذاك [23] ، ويقول السلطان في مذكراته السياسية " لليهود قوة في اروبا أكثر من قوتهم في الشرق ،لهذا فإن أكثر الدول الأوروبية تحبذ هجرة اليهود إلى فلسطين لتتخلص من العرق السامي الذي زاد كثيرا ، علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضا تملكوا كافة قدراتها في وقت قصير ، وبهذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم" [24]، وعن القدس يقول السلطان في مذكراته " لماذا نترك القدس ، أنها أرضنا في ككل وقت ووفي كل زمان وستبقى كذلك فهي من مدننا المقدسة وتقع في أرض إسلامية ،لابد أن نظل القدس لنا "[25]، وظلت فلسطين من أملاك السلطان إلى أن كان الاستعمار ،وكان وعد بلفور.

- عبد الحميد الثاني و الوحدة الإسلامية :

عندما اعتلى السلطان عبد الحميد الثاني عرش السلطنة العثمانية ، كان العالم العربي يشهد قيام فكرتين كانتا رد فعل ضد الاستعمار ، وازدياد السيطرة الأجنبية ،إحداهما فكرة الجامعة الإسلامية ، والأخرى فكرة القومية العربية والوحدة العربية التي انتشرت في العالم العربي ،وبخاصة بين نصارى بلاد الشام في حين كان العالم الإسلامي قد أضحى هدفا للأطماع الاستعمارية[26] ، ويقول السلطان عبد الحميد في مذكرته "البعض أصبح يقدم القومية على الدين ويظن انه يمكن مزج حضارة مصر بالحضارة الأوروبية ، وان الفكر القومي قد تقدم تقدما ملموسا في مصر والمثقفون المصريون أصبحوا من حيث لا يشعرون ألعوبة في يد الإنجليز ، أنهم بذلك يهزون اقتدار الدولة الإسلامية ويهز معها اعتبار الخلافة "[27]، واستيقظت فكرة إحياء الوحدة الإسلامية لتوحيد الجهود لمواجهة المطامع الاستعمارية ،فنشأت فكرة الجامعة الإسلامية ،وهي فكرة تقوم على دعوة المسلمين إلى الاتحاد والتعاون فيما بينهم لإصلاح أحوالهم، والتكتل لمواجهة الاستعمار الأوروبي ، وفي هذا الصدد يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته "الإسلام والمسيحية نظرتان مختلفان ولا يمكن الجمع بينهما في حضارة واحدة "،اخذ السلطان عبد الحميد على عتقه تنفيذها ،بعد أن هيأ كل من نامق كمال في البيئة العثمانية ، وجمال الدين الأفغاني في البيئة الإسلامية والعربية ، كان يرى أن جبهة المسلمين في الدولة العثمانية فقط لا تكفي ولذلك رأى ضرورة امتداد تأثيرا الوحدة الإسلامية لكل مسلمي أسيا ،مع ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الإسلامية بين كل مسلمي العالم في الصين والهند وأواسط إفريقيا وغيرها حتى إيران ،ويقول السلطان عن ذلك في مذكراته "عدم وجود التفاهم مع إيران أمر جدير بالتأسف عليه ،وإذا أردنا أن نفوت الفرصة على الإنجليز والروس فإن نرى فائدة في وجود تقارب إسلامي في هذا الأمر"[28].

أصدر السلطان المجلات ، وساعد الصحف لتقوم بدورها في الحقل الإعلامي وتوجيه الناس نحو سياسته الإسلامية ،وخصص السلطان مبالغ وافرة لإصلاح المساجد ،كما زاد من مرتبات علماء الدين ،وأئمة المساجد وموظفيها ، واهتم بإقامة الاحتفالات الخاصة بالأعياد والمناسبات الإسلامية ، وأدخل اللغة العربية في المعاهد وشجع على استخدامها [29] ، كما اتخذ السلطان عبد الحميد من خط سكة حديد الحجاز ووسيلة أيضا لتنفيذ فكرة الجامعة الإسلامية فيقول "

المهم هو إتمام خط سكة الحديد ، بين دمشق ومكة في أسرع وقت ، ففي هذا تقوية للرابطة بين المسلمين ، كما فيه أيضا اتخاذ هذه الرابطة بعد تقويتها صخرة صلبة تتحطم عليها الخيانات والخدع الإنجليزية "[30]

استطاع بواسطتها أن يحتفظ بولاء العناصر غير التركية داخل دولته ،وان يكسب إلى جانبه جميع المسلمين خارج حدودها ، ولكن احتلال فرنسا لتونس وتوسعهم في قلب القارة الأفريقية ،وتهديهم لمراكش، واحتلال الانجليز لمصر ،وتوطين دعائم نفوذهم على الحركة المهدية في السودان ،ثم التطورات الأمور في الداخل وانتهت إلى اجتماع مجلسي المبعوثان والشيوخ في شكل جمعية وطنية في سان استفانو التي صارت مقر جيش التحرير ،وفي عام 1909 م قرر المجتمعون بالإجماع خلع السلطان عبد الحميد الثاني بفتوى من شيخ الإسلام [31]، وبسقوط السلطان عبد الحميد سقطت الخلافة من الناحية العملية.

-السلطان عبد الحميد والمسألة الأرمينية :

تكمن أهمية مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني بصفة خاصة في تطرقه للمشكلة الأرمينية التي تمثل الصراع الغربي الإسلامي في فترة حكمه ، لأنها من أكثر المسائل التي استغلها الغرب سواء في النصف الثاني من القرن التاسع عشرا من اجل التدخل في شئون الدولة العثمانية و إضعافها أكثر مما كانت عليه وتقسيمها ، أو استغلال الغرب لها إلى غاية زمننا الحالي في جعلها نقطة السوداء في تاريخ العثماني ، تتهم بها الدولة العثمانية بتهمة اضطهاد الأقليات الغير مسلمة ، بعدما ظلت الدولة العثمانية للقرون تسير بمبدأ التسامح الديني ، الذي لم تقم به غيرها من الدول الكبرى ، كما تكمن أهميتها في تبرئة السلطان ، وتوضيح صورة وشخصية الحقيقية من خلال ما جاء في مذكراته حول المشكلة الأرمينية وموقفه منها ، إذ قام العديد من الكتاب والصحفيين والوزراء والقناصل الغربيين بتشويه صورته فلقبوه بالسلطان الأحمر أي سلطان الدم ، و نسبوا إليه العديد من الجرائم ضد الأرمن

يتكلم السلطان عبد الحميد في مجموعتين من مذكراتها عن المشكلة الأرمينية في فترة حكمه ، في " مذكراتي السياسية 1891-1908 " تحت العناوين كالأتي : الأكراد والأرمن ، الأرمن والتجارة ،السفير الألماني والمشكلة الأرمينية، وفي "مذكرات السلطان عبد الحميد " كتب عن المسألة الأرمينية في مذكرته من 11 مارس 1917م تحت العناوين التالية : المشكلة الأرمينية ، أصحاب الكفر ملة واحدة في تفتيت الدولة العثمانية، أصحاب الكفر ملة واحدة في تفتيت الدولة العثمانية ، عاملت الأرمن معاملة رحيمة لكني منعت تجمعهم على فكر واحد ، طريقة الغرب في الفصل أجزاء الدولة العثمانية ، إنجلترا تثير المسألة الأرمينية لإبعاد الرأي العام العالمي عن مصر ، الصحف الأوروبية ضدي ، تركيا الفتاة تتعاون مع الأرمن في الخارج ضدي .

وقبل ما نتطرق إلى المسألة الأرمينية وموقف السلطان عبد الحميد الثاني منها يجب علينا أولا أن نتعرف على أصل الأرمن وعلاقتهم مع العثمانيين .

- الأرمن :

الأرمن شعب أري موطنه بلاد أرمينيا، انتشرت المسيحية بين أبنائه وأسس في عام 301 ق.م كنيسته ، وينقسم أغلبية الأرمن إلى المذهب الأرثوذكسي و الأقلية إلى الكاثوليك [32]، شملت منطقة أرمينية مساحة شاسعة تحدها أسيا من الصغرى من الغرب وسلسلة جبال القوقاز من الشمال، والبحر الأسود من الشمال

الغربي ، وبحر قزوين من الشمال الشرقي ، و أرض فارس من الجنوب الشرقي ، موقع أرمينيا الجغرافي الإستراتيجي على مفرق الطرق التجارية والعسكرية بين أوروبا وأسيا جعلها منطقة صراع بين الإمبراطوريات المتنافسة عبر التاريخ ، وكانت أرمينية مسرحا للعمليات الحربية بين الدولتين المتصارعتين العثمانية السنية و الصفوية الشيعية مما أسفر عن تقسيم أراضيها فيما بينها ،تمكن السلطان العثماني سليم الأول (1512م-1520م) من الاستيلاء على غربي أرمينية بعد هزيمة الصفويين في معركة جالديران عام 1514م، وفي عام 1516م استولى السلطان سليم الأول على أرمينية الصغرى ،الواقعة تحت حكم سلاطين المماليك بمصر منذ عام 1375م ،ثم تكررت الحرب سبع مرات بين الدولتين الصفوية والعثمانية منذ عام 1534م حتى عام 1616م مما أدى إلى تقسيم أرمينية إلى قسمين شرقي للدولة الصفوية ، وغربي للدولة العثمانية ، إذ أطلق اسم أرمينية الشرقية ، ومنذ عام 1828م استولت روسيا القيصرية عليها وصارت تسمى أرمينية الروسية ، و أرمينيا الغربية العثمانية فقد أطلق على ست ولايات بدليس ، أرضوم ، وان ، خربوط ، سيواس ، جزء من دياربكر ، سيطر العثمانيون على ست ولايات إضافة قيليقية.[33]

-الأرمن في الدولة العثمانية :

كانت العلاقات بين الأقوام والطوائف المختلفة في الدولة العثمانية جيدة نسبيا ، تمتعت هذه الأقليات بحقوق العثمانية ، والحماية أكثر من مثيلاتها في الممالك الأوروبية الأخرى كفرنسا و إمبراطورية الهابسبيرغ ، لقد كانت الدولة العثمانية تعترف باستقلال الذاتي للطوائف الغير الإسلامية داخل أراضيها ،فكانت تتعامل مع هذه الطوائف بواسطة زعمائها وممثليها كما كانت لكل طائفة محاكمها الخاصة التي تفصل بين المتخاصمين وفق قوانينها الدينية الداخلية .[34]

أدرك العثمانيين منذ البداية ذكاء الأرمن ومهارتهم ، فنقلوا إلى الأستانة حوالي 40 ألف لينافسوا اليونانيين في الحرف والتجارة والفنون ، وتوافدت أفواج أرمينية إلى الأستانة منهم من سكن فيها، ومنهم من يعمل فيها مؤقتا [35]،وانخرط الأرمن في الهيكل الوظيفي العثماني ،فتقلدوا أعلى الوظائف بسبب استعدادهم لخدمة الدولة وذكائهم وجديتهم وافتقارهم إلى طموحات الاستقلال [36]، وأشرك السلطان عبد الحميد المسلمين والأرمن واليونانيين معا في طاقم وزارته الحديثة وكان الإشراف على الزراعة قبل تأسيس النظارة 1893 من اختصاص الأرميني اماسيسان أفندي المدير النشط لإدارة الزراعة في نظارة التجارة والأشغال العمومية حيث كان يوفد كثيرا من الشباب العثماني الأرميني للتدرب في أوروبا ، وكان السلطان يأتمن مصرفيين من الأرمن أملاكه الشخصية حقل ،ويلاحظ في هذا السياق أنه في الزراعة ، وخلافا كثيرا من الدول التي عاصرت العثمانيين والتي منعت استخدام الأرض على جماعات عرقية أو دينية ، سمح العثمانيون لجميع رعاياهم بحيازة الأرض حيث نجد مزارعين من الأرمن والأتراك والعرب واليهود، كما سيطروا الأرمن على القطاع الصناعي في غرب الأنضول قبل الحرب العالمية الأولى .[37]

وتشير إحصائية عن موظفي الأرمن في الحكومة العثمانية إلى وجود 22 وزيرا عملوا في الخارجية والمالية والخزانة والأشغال العامة والبريد والتلغراف وخمسة وكلاء وزارات ، وقناصل في برلين وروما ولندن وبروكسل وفيينا ، ومستشارين والسكرتيرين والمترجمين والمديرين وغيرهم [38] ، وفي هذا يقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته السياسية " شيء مضحك ، أن نتهم بتعذيب الأرمن واستغلالهم ، لو جال المرء بنظره في تاريخ إمبراطوريتنا لثبت لديه أن الأرمن كانوا دائما أغنياء ، الذين يعرفون حقائق الأمور يؤكدون تفوق الأرمن ماليا على رعايانا المسلمين ، لقد تقلد الأرمن في جميع العهود أعلى المناصب الوظيفية في الدولة بما فيها منصب الوزير الأعظم ، ولا أكون مبالغا أبدا إذا قلت أن ثلث الموظفين هم من الأرمن" [39] ، كانت الأستانة مركزا اقتصاديا وثقافيا وسياسيا للأرمن الذين نعموا برعاية السلاطين ونالوا مساعدتهم حتى غدوا من أرقى العناصر ، غير أن وضعية أقرانهم في الولايات الست وقيليقية كانت على النقيض تماما وفي هذا عبر السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته السياسية " وباستثناء الأرمن الذين يعيشون في جبال الأكراد عيشة بائسة ، فإن الأرمن هم أغنى الرعايا بمن فيهم الروم ، والحقيقة التي لاغبار عليها أن هؤلاء القوم يعرفن كيف يستفيدون من ثروات بلادنا " [40] ، حيث عاش الأرمن في الولايات أرمينية الغربية مشتتين عبر مساحات كثيرة واسعة ويفصل بينهم عدد من المستوطنات الكردية والتركية أو المراعي ، يعيشون في قرى على هيئة منازل عشوائية ، ومنازلهم صغيرة ، ومعظم الأرمن في هذه الولايات أميين يتحدثون اللغتين الأرمينية والتركية بلهجات محلية .[41]

-المشكلة الأرمينية والتدخلات الأجنبية :

خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر بسبب نشاط البعثات التنصيرية كانت هناك يقظة قومية وثقافية أرمينية ، وأبدت بريطانيا اهتمامها بالأرمن بعدما حصلوا على إذن من السلطات العثمانية بإقامة كنيسة بروتستانتية في القدس 1840م ، ولقد نجح المبشرون البريطانيون الأمريكيون 1850م من تحويل 15000 أرميني إلى البروتستانتية وحصلوا من الباب العالي على حق تكوين طائفة مستقلة البروتستانتية يرأسها أسقف ويساعد مجلس الديني ، وكان الباعث في اعتناق الأرمن المذهب البروتستانتي اعتقادهم أنهم سيكونون في حماية القناصل البريطانيين ،كما هو حال مواطنهم الأرمن الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكي وظفروا بحماية فرنسا.[42]

طولا الأرمن من مراكزهم الثقافية وأحيوا لدراسة اللغة الأرمينية الكلاسيكية ، ونشروا الأناجيل بلغتهم القومية وطوروا لغة جديدة يستطيع جميعهم فهمها [43] ، وقام التعليم بدور رئيسي في اليقظة الأرمينية ، ثمة عدد ضئيل من المدارس الابتدائية كانت قد افتتحت في الأستانة بين عامي 1790 – 1800 ، ولكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر كان بالأستانة وحدها أثر التنظيمات ما يقارب من 5000 تلميذا وتلميذة من الأرمن الذين يذهبون إلى حوالي 40 مدرسة [44] ، و أرسل الكثير من أغنياء الأرمن أبنائهم للدراسة في فرنسا حيث تأثروا بالثقافة الفرنسية ، وعند

عودتهم نادوا بالحكم الذاتي [45]، كما قامت الطباعة والصحافة بدور حاسم في اليقظة الأرمينية ففي عام 1812 أصدر الأرمن بالأستانة " رقيب بيزنطة " أول صحيفة في الدولة العثمانية ثم أسسوا 14 دورية بالعاصمة العثمانية بين عامي 1840 – 1866 ، وخلال النصف الثاني من القرن 19 قامت هذه الدوريات بدور رئيسي في اليقظة السياسية لدى جموع الأرمن القاطنين بالأناضول [46]، وكانت هذه من أهم العوامل التي غيرت المجتمع الأرميني وجعلته أخيرا يمتلك أدوات بدء إحياء سياسي بعد خمسة قرون من سقوط أخر مملكة أرمينية مستقلة في عام 1375، إضافة إلى هذه العوامل استقلال بلغاريا والصرب أثار لدى الكثير من الأرمن في تحقيق نفس الهدف.

منذ تسلم السلطان عبد الحميد الثاني الحكم في عام 1876 ، سارع الروس بإعلان الحرب على الدولة العثمانية 1877 – 1878 ، ومنذ ذالك الحين ظهرت المسألة الأرمينية علة الصعيد الدولي [47] وعندما انتهت الحرب الروسية العثمانية بعقد هدنة أدرنة في 31 يناير 1978 ، ثم أجرى الطرفان مفاوضات سرية تكللت بعقد معاهدة عرفت ب: سان ستيفانو وقعا عليها في 3 مارس 1878م ، وقد حرص الأرمن عن طريق بطريركهم في اسطنبول نرسيس ، الذي زار القائد الأعلى للجيش الروسي في سان ستيفانو الدوق نيقولا وأرسل عريضة الى القيصر الروسي الإسكندر الثاني في1878.02.13 م ، على كسب التعاطف الروسي لتحقيق الهدف الأرميني بإقامة دولة لهم في الأناضول ، وقام قيصر روسيا بإدراج مادة خاصة بالأرمن في معاهدة سان ستيفانو، وهي المادة السادسة عشر وقد تضمنت حقوق الأرمن في الدولة العثمانية [48].

أبدت بريطانيا قلقها الشديد بشأن المادة السادسة عشر، وابدوا خشيتهم من محاولة روسيا جعل شرق الأناضول مثل البلقان من خلال حماية الأرمن، فكادت أن تدخل بريطانيا في حرب ضد الروس على خلفية إعلان نبأ معاهدة سان ستيفانو، وعندما عقد مؤتمر برلين قامت بريطانيا بإدراج فقرت خاصة بالأرمن وهي المادة 61 من اتفاقية برلين وأصرت بريطانيا على إدراجها [49]، ونصت هذه المادة على

" أن يتعهد الباب العالي وبدون أي تأخير بإدخال التحسينات والإصلاحات التي تستلزمها المتطلبات المحلية في الولايات التي يقطنها الأرمن وضمان أمنهم تجاه الشراكسة والأكراد ، كما يتعين على الباب العالي من حين لأخر أن يحيط القوى الكبرى التي ستقوم بالإشراف علما بأي أمر يتعلق بذالك " ، ومن هنا ألغيت القوات الروسية وحلت محلها مسؤولية أوروبية جماعية دون إشراف مباشر أو ضمانات دولية جديدة من أجل تنفيذ إصلاحات في أرمينية الغربية [50] ، يقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته " كنت أعلم في تلك الأيام بأنباء تصادم إنجلترا وروسيا في الشرق الأقصى ، فلا روسيا ولا إنجلترا ولا أيضا فرنسا التي تعمل حسابا لألمانيا يستطيعون التدخل بشكل جدي ، وبالفعل لم يتدخلوا ولكن إنجلترا بذلت أقصى ما في وسعها بعد ذالك بسنوات لإثارة المسألة الأرمينية لكي تبعد عن الأذهان أعمال تدخلها

في مصر وكانت تعمل جاهدة على تركيز انتباه العالم على الدولة العثمانية " [51] .

كانت بريطانيا تقوم بالاحتجاج والضغط من وقت لأخر على الدولة العثمانية بسبب بعض المظالم ، التي كانت تقع على الأرمن ، وتحث السلطان على الإيفاء بوعوده بشأن الإصلاحات ، واستمرت الأمور كذلك طول فترة حكم جلادستون 1880م-1886م ، إلى أن أصبح سالزيوري رئيسا للوزراء خلفا له عام 1886 م قمع 1888م بتهديد السلطان عبد الحميد بأنه إذا لم يقم بتطبيق الإصلاحات الخاصة بالأرمن فإنه سيستخدم القوى العسكرية، لكن السلطان لم يأبه لهذه التهديدات بل وعارض أي تدخل لدول أوروبا وفي مقدمتها بريطانيا في المسألة الأرمينية [52] ، لكن الأحداث العالمية التي وقعت منذ عام 1880م حولت أوروبا إلى اتجاهات أخرى فالنشاطات السلافية في النمسا – المجر واحتمال وقوع تحالف فرنسي روسي قد أسفر عن اتفاق ألمانيا و النمسا- المجر مع الحكومة العثمانية ، واستعدادهم لمساعدتها، وبدأ واضحا منذ 1881م أن المساعدات الأوروبية بشأن أرمينية الغربية غدت ضئيلة جدا [53] ،مما أدى إلى ظهور ثوار الأرمن والإرهاب لإثارة المسلمين ودفعهم إلى نوع من الانتقام مما قد يرغم بريطانيا وروسيا على التدخل [54] ، ويقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته " هدف الأرمن إثارة المسلمين واستفزازهم للاعتداء عليهم ثم يقيمون العالم ويقعدونه بحيث تتدخل الدول الأوروبية لتقول إن الحياة بين هذين العنصرين (المسلمين والأرمن) مستحيلة " [55] ، وبفشل ثوار الأرمن داخل الدولة العثمانية تحول مصرح نشاطهم حيث بدأوا ينظمون جماعات دفاعية في عدة مواقع ما لبثت أن تمخض عنها الأحزاب الثورية ، وقد مارست هذه الجمعيات الدعائي والفدائي والثوري في الأقاليم ، ففي عام 1885م تأسس حزب الأرميناجان في وان، وهو أول حزب سياسي أرميني والحزب الوحيد الذي تأسس في أرمينية ذاتها، وقد أسسه بعض المدرسين الشباب بمدرسة المعلمين في وان هدفه التحرر الوطني في أرمينية ودعى برنامج هذا الحزب إلى التعليم العام والمقاومة المسلحة ، وفي عام 1887م تأسس حزب "الهنشاك" الاشتراكي الديمقراطي الأرميني في جنيف بسويسرا ،وفي عام 1889م انضم هذا الحزب إلى مؤتمر دولية اشتراكية ثانية للأحزاب الاشتراكية المنعقد في باريس بوصفه حزب اشتراكيا ، ولكن منذ عام 1896م انفصل عنه جناح يميني مؤسسا حزب الهنشاك المعاد تكوينه في مصر.

حزب الإتحاد الثوري الأرميني (الطاشناق) تأسس في تفليس عاصمة إقليم القوقاز الروسي عام 1890م، وهو حزب الاشتراكي الوطني الأرميني هدفه تحقيق الحرية السياسية والاقتصادية الأرمينية العثمانية بوسائل التمرد والثورة ، وسائله: الدعاية ،تعليم الثوري للشعب ، تنظيم الشعب وتسليحه للدفاع عن نفسه، أعمال التخريب ، اغتيال الموظفين الفاسدين وجميع المستغلين والخونة الأرمن [56] .

قام السلطان عبد الحميد الثاني ضد ثوار الأرمن بتنظيم الجندرمة القبلية والتي عرفت باسم الحميدية لمساعدة الجيش في إخماد

الثورات الأرمينية ويقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته " ولكي لأخمد هذا النزاع بين الأرمن والمسلمين أرسلت الجيش بقيادة المشير زكي باشا إلى هذه المنطقة للعمل على سحق التمرد "[57] كما قام بإجراءات صارمة ضد تجار الأرمن في استانبول لإضعاف قواتهم الاقتصادية، وأغلق بعض المدارس الأرمينية التي تدعو إلى الثورة [58] .

يذكر أن السلطان قام بتجريد الأرمن من ممتلكاتهم ، وشجع المسلمين ضدهم وقام بتسليح الأكراد ضد الأرمن من أجل تقليل في عدد السكان الأرمن وذلك من 1894 – 1896 م [59]، ويرى مارتن برويتسن بأنه على الرغم من القسوة التي تعرض لها الأرمن من الدولة العثمانية، لم يوجد أي خطة منظمة لطردهم أو تصفيتهم بل العكس حاولت الإدارة المدنية لإزالة الآثار الناجمة عن العمليات التي حدثت كما جاء في تقرير أحد القناصل البريطانيين في 1894 ، أن ما حدث هو جزء من المؤامرة الخارجية لجر البلاد إلى حرب أهلية كان الغرض منها زعزعت الاستقرار في الدولة العثمانية ، مما انعكس سلبا على المجتمع العثماني بشكل عام والأرميني بشكل خاص [60] .

سعى السلطان عبد الحميد الثاني بكل جهده لحل المشكلة الأرمينية حتى يتجنب تدخل دول الأوروبية واتبع سياسة الإيقاع يستخدمها مع الدول الأوروبية لموازنة القوى ، يقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته عن سر سياسته " كان الواضح أن التنافس بين الدول الكبرى، سيجرها أخيرا إلى التصارع والتصادم فيما بينها ، وعلى هذا ، فإن الدولة العثمانية أمام تصارع وتصادم كهذا تصبح بعيدة عن أخطار التمزق والتقسيم "[61] ، ساعد الموقف الدولي عبد الحميد على الاستمرار في سياسته إزاء الأرمن ، وكانت سياسة عبد الحميد نشطة أيضا ضد المثقفين والمنشقين الأتراك وكبح جماع عددا من رؤساء جماعة تركيا الفتاة ، حيث تحالفوا مجموعة من الأرمن مع المعارضة العثمانية ضد السلطان عبد الحميد الثاني بغية إعمال العمل بدستور 1876 م ، وفي 1902 اتحدت تركيا الفتاة مع حزب الطاشناق في أول مؤتمر للأحرار العثمانيين ورغم أنهم قد اتفقوا على العمل من أجل إقامة دولة دستورية ، إلا أنهم لم يتفقوا حول تدخل الأوربي فيما يتعلق بالأقليات ، وفي 27 سبتمبر 1908 قررت منظمتا تركيا الفتاة في باريس والسالونيك الانصهار في منظمة واحدة صارت تسمى لجنة الإتحاد والترقي ، وانتقل مركزها من العواصم الأوروبية إلى السالونيك ، واتفق الأتراك والأرمن على العمل سويا من أجل إسقاط عبد الحميد وإقامة دولة بدون أي مساعدة أوروبية [62] ، ويقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته " لم أكن أدهش لهيام الأرمن بحب الاستقلال ، وخاصة بعد معرفة إثارة الدول الكبرى لهم بلا توقف لكنني أدهش لأن بعض أفراد تركيا الفتاة الذين هربوا إلى أوروبا وأصدروا هناك صحف ضدي كانوا يتعاونون مع أعضاء المنظمات والجمعيات الأرمينية " [63].

قام الطاشناق بمحاولة أحدهم باغتيال السلطان عبد الحميد الثاني يوم 21 جويلية 1905م في أعقاب خروجه من صلاة الجمعة .

-الدعاية الأرمينية الغربية والسلطان عبد

الحميد :

كانت للدعاية الأوروبية والأرمينية دور في إثارة الاضطرابات في الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ولازلت أثار تلك الدعاية في تزييف حقائق القضية الأرمينية و التاريخ العثماني إلى وقتنا الحالي ، ولقد كانت الدعاية الغربية التي تنشرها وسائل الإعلام من قلب الحقائق وتصوير المسلمين على أنهم همج في المقابل تصوير الأرمن على أنهم أتقياء وعباقرة و أذكياء و متسامحون ، كما كان للسفراء والقناصل الغربيين والمبشرين البروتستانت الأمريكيين دور في تضليل الرأي العام ونشر تقارير مبالغ فيها عن قتلى الأرمن وغض الطرف عن القتلى المسلمين ، و كان للقنصل الأمريكي المتهم بالتعصب للأرمن دور في نشر هذه الأضاليل ولم يكن القنصل الفرنسي أقل افتراء من القنصل الأمريكي وروسي [64]، وتظهر المبالغة و التضليل عند دعوة السلطان عبد الحميد الثاني إلى تعيين عضو لينظم إلى لجنة الاستقصاء الأوروبية العثمانية الذي تقرر تأليفها بعد الاضطرابات الأرمينية 1894م ،لكنها رفضت لأسباب منها : طبيعة المبالغة في التقارير والروايات ، و عدم أحقيتها في المشاركة في التقصي ، وذلك لأنها لم تكن طرفا موقعا على معاهدة برلين ، وهدف السلطان عبد الحميد الثاني التدخل الأمريكي للحد من تدخل الدول الأوربية في شئون الدولة العثمانية ، وطلب مجلس الشيوخ الأمريكي من الرئيس في نفس العام مزيدا من المعلومات فيما يختص بالأضرار التي لحقت بالمواطنين الأمريكيين أو ممتلكاتهم ، إضافة إلى رغبته في معرفة الاضطهاد فقد أبلغت الخارجية الأمريكية مجلس الشيوخ بأن التقارير الصحفية كانت مبالغا فيها [65].

أشارت المصادر الغربية والأرمينية أنه قتل زهاء 300 ألف من الأرمن بين عامي 1894-1896م ، بينما تشير المصادر التركية إلى مقتل مابين 300و500ألف أرمني في الحروب التي دارت في أنحاء البلاد ، وكان ضحاياها من مختلف الشعوب وليس الأرمن فقط ، ولم تكن في صيغة إبادة وفق تعريف القانون الدولي للكلمة وهو ما يعني عند الاعتراف بذلك سلسلة من التبعات السياسية بما في ذلك التعويضات المالية [66]، وأعلن نائب أرمني بكل صراحة في برلمان الجديد في عهد الاتحاديين أنه أعد ستين قنبلة وفجرها في العهد الحميدي[67] ، كما هاجموا الثوار الأرمن 1896م البنك العثماني غلطة سراي ،من أجل ضرب المصالح الاقتصادية في الدولة العثمانية ،مما أدى إلى تصدي العثمانيين لهم 3 أيام وبعدها توقفوا ، واستنكرت الدول الكبرى لهذا العمل [68] ، لأن هدف الدعاية الأوروبية كان فقط اتهام السلطان عبد الحميد ،وأطلقوا على السلطان الأحمر، حيث نشطت شبكة الدعاية الثورية لإحداث رد فعل شعبي ، اتهمت الحكومة العثمانية بأنها أمرت بتدمير 25 قرية وإعدام 20 ألف فلاح أرمني وكلفت لجنة مشتركة عثمانية أوروبية للبحث والتقصي وأظهرت النتائج المبالغة وإدعاءات [69]، وفي الولايات المتحدة نظم الثوار الأرمن أنفسهم في جمعيات لنشر الدعاية مضادة للعثمانيين تدفعهم فكرة تعبئة شعور العام المؤيد لإنشاء دولة أرمينية مستقلة ، وصدرت في نيويورك صحيفة باللغة

الأرمينية كانت تحض قراءها على تنظيم جمعيات والمشاركة في الحركات الثورية الأرمينية الرامية إلى تدمير السلطة العثمانية في الأقاليم الأسيوية تكوين منظمات أخرى تحرص على إثارة شعور متعاطف وسط الأمريكيين مما أدت رسم صورة سيئة عن السلطان عبد الحميد الثاني حتى أطلق عليه " التركي الرهيب " طلب السلطان من الولايات المتحدة الأمريكية منع نشر المقالات في الصحف الأمريكية ، لكن كان ردها بأنها لا تمنع حرية الرأي[70] ، ويقول السلطان عبد الحميد في مذكراته "الصحف الأوروبية كانت تضع بصماتها على هذه المسألة أيضا وكانت تكتب عنها بشكل دائم ،وتهاجمني وتلقبني بالسلطان الأحمر، وكانت تحرض الرأي العام العالمي ضدي "[71]، أما بالنسبة للدعاية الروسية فيقول المؤرخ شوفيو ضحان هي التي طورت واستعملت القضية الأرمينية بمهارة كبيرة في وقت الذي لم تكن فيه روسيا سعيدة بالاستقلال الأرميني في الدولة العثمانية لأنه سيثير بقية الأرمن عندها وبقية القوميات وكانت تفضل إثارة الاضطرابات فقط للعثمانيين ، أما المؤرخ جيرمي سولت فيوثق الدور التبشير الأمريكي والإنسانية البريطانية في خلق المسألة الأرمينية وينقل عن أحد المبشرين قوله انه لو تركت أوروبا الأرمن لكان أفضل من إثارتهم ثم إحباطهم ، كما ينقل على مستشرق البريطاني ايفن فامبري قوله أن دور بريطانيا في إثارة الخلافات والأحقاد بين عناصر الدولة لا ينكره إلا الأعمى [72].

انقسم المؤرخين إلى قسمين، قسم الغربيين يتهم العثمانيين بالقتل و الجرائم ضد الأرمن ، وقسم المؤرخين الأتراك ينفي هذه الجرائم ويبرر عدم وجود أي نية للقتل أو تهجير لكن لإخماد الثورة والتدمير الأرمن للدولة ، تطلب التدخل بالسلاح ، وهو رد فعل السلطان عبد الحميد الثاني ضد فعل أرمن .[73]

الخاتمة :

تكمن أهمية مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني في كونها مصدر ثاني برأي مختلف ، تمكن الباحث من تفحص وجهتي النظر حتى لا يصدر أحكام صارمة على شخصية السلطان عبد الحميد الثاني وأحداث فترة حكمه دون التحقق منها ، كالمسألة الأرمينية في الدولة العثمانية وموقف السلطان عبد الحميد الثاني منها ، خاصة أن الدعاية الأرمينية والأجنبية قامت بتشويه صورة السلطان عبد الحميد الثاني من خلال المبالغة والكذب عن أعماله ضد الأرمن ، كما كان لها دور في تأزم الوضع في الدولة العثمانية وأدت إلى تشكيل جمعيات أرمينية ثورية ضد الدولة العثمانية ، وكانت المسألة الأرمينية جزء من خطط الدول الأوروبية للتدخل السياسي في شئون الدولة العثمانية الداخلية، وبذلك تفكيكها وتقسيم ممتلكاتها.

-الهوامش:

1- التنظيمات هو اصطلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي ، بهذين الفرمانين تم استبعاد العمل بالشريعة الإسلامية وبدأت الدولة تستلهم الروح الغربية في الحياة وتستلهم الفكر الغربي في التقنين وإقامة المؤسسات ، محمد حرب ، مذكرات السلطان عبد الحميد ، ط3 ، دار القلم ، دمشق ،1991 ، ص18 .

2- علي محمد الصلابي ، السلطان عبد الحميد وفكرة زوال الخلافة العثمانية ، المكاتبة العصرية ، بيروت ،2012 ،ص18.

3-محمد حرب ، المصدر السابق ، ص 47 .

4- المصدر نفسه ، ص 18.

5- عبد الله نبيل علي ، الدولة العثمانية الدستور الاستخلاف والتمكين ، سلاطين الدولة العثمانية عهد الفوضى ، ج1 ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 2018 ، ص 373.

6- محمود السيد ، تاريخ وحضارة الدولة العثمانية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 2018 ، ص 160.

7- محمود السيد ، المرجع السابق ، ص 160.

8- محمد حرب ، المصدر السابق ، ص 20.

9- المكان نفسه

10- عبد الله نبيل علي ، المرجع السابق ، ص 380.

11- السلطان عبد الحميد الثاني ، مذكرات السياسية 1891 – 1908 ، مؤسسة الرسالة ، ص 8 .

12- محمد حرب ، المصدر السابق ، ص 15.

13- المصدر نفسه ، ص 27.

14- المكان نفسه

15- علي محمد الصلابي ، المرجع السابق ، ص 15.

16- المرجع نفسه ، ص 18.

17- المكان نفسه

18- المكن نفسه

19– المكان نفسه

20-محمد شعبان صوان ، السلطان والتاريخ لماذا نقرأ التاريخ العثماني ، ط 1 ، إبن نديم ، الجزائر ، 2016 ، ص 308.

21-المرجع نفسه ، ص 709.

22-محمد حرب ، المصدر السابق ، ص 332 .

23-محمد شعبان صوان ، المرجع السابق ، ص332.

24- السلطان عبد الحميد ، المصدر السابق ،ص34-35.

25-محمد حرب ، المرجع السابق ، ص 30.

26-محمد سهيل طقوش ، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة ، ط3 ، دار النفائس ،لبنان ،2013 ،ص 482.

27- محمد حرب ، المصدر السابق ، ص23.

28-المصدر نفسه ، ص 27.

29- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص 487.

30-محمد حرب ، المصدر السابق ، ص 26.

31-محمود السيد ، المرجع السابق ، ص 173.

32-علي حمزة سلمان ،الأرمن بين الروس والأتراك ، قسم التاريخ كلية التربية والعلوم الإنسانية ، جامعة كربلاء ، ص 4.

33-محمد رفعت الإمام ، القضية الأرمينية في الدولة العثمانية 1878-1923 ، دار نوبار، القاهرة ،2002، ص15.

34- محمد شعبان الصوان ،المرجع السابق ،ص354.

35- علي حمزة سلمان ، المرجع السابق ، ص16.

36-محمد رفعت الإمام ، المرجع السابق ، ص17.

37-محمد شعبان الصوان ،المرجع السابق ،ص355.

38-محمد رفعت الإمام ،المرجع السابق ،ص17.

39-السلطان عبد الحميد ، المصدر السابق ،ص27.

40-المصدر نفسه ، ص28.

41- محمد رفعت الإمام ، المرجع السابق ، ص17.

42-يوسف حسين عمر ، سياسة بريطانيا تجاه الدولة العثمانية 1839-1909،دار نور ، ط2، ألمانيا،2016، ص382.

43-سلوى سعد الغالبي ، العلاقات العثمانية الأمريكية 1830-1917،مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى ،2002،ص120.

44-محمد رفعت الإمام ، المرجع السابق ،ص20.

45-سلوى سعد الغالبي ،مرجع السابق ،ص120.

46- محمد رفعت الإمام ،المرجع السابق ،ص 20.

47-محمد جمال الدين العلوي و بان غانم الصائغ ، المسألة الأرمينية وموقف الغرب منها خلال حكم السلطان عبد الحميد(1876-1909) ، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، المجلد 12 ،العدد1، الموصل ،201،ص461.

48-هوكر طاهر توفيق ، الكرد والمسألة الأرمينية 1877-1920،ط1،دار الفارابي ،لبنان،2014،ص127.

49-يوسف حسين عمر ، المرجع السابق ، ص 383.

50-محمد رفعت الإمام ، المرجع السابق ، ص 24.

51- محمد حرب، المصدر السابق ،ص 128.

52-يوسف حسين عمر ، المرجع السابق ، ص 383.

53- محمد رفعت الإمام ، المرجع السابق ، ص 25.

54-سلوى سعد الغالبي ، المرجع السابق ، ص 122.

55-محمد حرب ، المصدر السابق ، ص126.

56- محمد رفعت الإمام ، المرجع السابق ، ص 26.

57- محمد حرب ، المصدر السابق ، ص 127.

58- محمد جمال الدين العلوي و بان غانم الصائغ ، المرجع السابق ، ص 462.

59-Yves Ternon ,Arméniens et turcs 1878-1923 ,octobre 2002,p3.

60- محمد جمال الدين العلوي و بان غانم الصائغ ، المرجع السابق ، ص 465.

61–محمد حرب ، االمصدر السابق ، ص 137.

62-محمد رفعت الإمام ، المرجع السابق ، ص 21- 22.

63-محمد حرب ، المصدر السابق ، ص 128.

64-هاني السباعي ، إبادة الأرمن على أيدي العثمانيون الأكذوبة الكبرى ، نخبة الفكر ، 2015، ص 5.

65-سلوى سعد الغالبي ، المرجع السابق ،ص 127.

66- محمد جمال الدين العلوي و بان غانم الصائغ ، المرجع السابق ، ص 462.

67-احمد عبد الوهاب الشرقاوي ، مذابح الأرمن ضد الأتراك ، ط 1 ، دار البشير ، مصر ، 2016، ص7.

68- محمد جمال الدين العلوي و بان غانم الصائغ ، المرجع السابق ، ص 470.

69- سلوى سعد الغالبي ، المرجع السابق ، ص 125.

70- المرجع نفسه ، ص 127.

71-محمد حرب المصدر السابق ، ص 128.

72-محمد شعبان صوان ، المرجع السابق ، ص 516-517.

73-Vincent Duclert , Les Historiens et la Destruction Des Arméniens , n° 81 ,revue d'histoire , 2004 ,p 134.